في الاجتماع اللغوي

تطور اللغة وارتقاؤها

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

تتأثر اللغة أيما تأثر بحضارة الأمة ، ونظمها وتقاليدها ، وعقائدها ، واتجاهاتها العقلية ، ودرجة ثقافتها ، ونظرها إلى الحياة ، وأحوال بيئتها الجغرافية ، وشئونها الاجتماعية العامة وما إلى ذلك . فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صداه في أداة التعبير . ولذلك تعد اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب : فبالوقوف على المراحل التي اجتازتها لغة ما ، وعلى ضوء خصائصها في كل مرحلة منها ، يمكن استخلاص الأدوار التي مرَّ بها أهلها في مختلف مظاهر حياتهم

فكلما اتسعت حضارة الأمة وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها الفكرية ، وأولئك المستبدون يَصِلُون النهار بالليل في تزويد عقولهم وأفهامهم بما يجدّ في عالم الآداب والفنون ، ولا يمكن زحزحة هؤلاء المستبدين بالتشكي والتوجع ، وإنما يزحزَحون بمناكب أضخم من مناكبهم ، وتلك المناكب هي العقول العاتية التي تأنف من الاكتفاء بالزاد القليل ، وترى القناعة من صور الفناء . وقد علّل أحد الشبان نفسه فقال : سيأتي يوم يموت فيه هؤلاء الكهول ويخلو الميدان

وهذا أيضاً حق ، ولكن خيبة مصر في أبنائها ستكون فظيعة حين يصح أن موت المتفوقين هو الفرصة لتقدم المتخلفين

إن مصر تنتظر شباناً أقوياء لا يطيف بأذهانهم مثل ذلك الخيال السقيم . مصر تنتظر شباناً يعيشون عيش التبتل والتنسك والاعتكاف في زوايا المدارس والمكاتب . مصر تنتظر شباناً لا يعرفون من أدوات الزينة غير القلم والكتاب . مصر تنتظر شباناً يؤمنون بأن المجد الأدبي لا ينال بالتشهي والتمني ، وإنما ينال بالصبر على إذكاء العيون تحت أضواء المصابيح

زكي مبارك

ورقي تفكيرها ، وتهذبت اتجاهاتها النفسية ، نهضت لغتها ، وسمت أساليبها ، وتعددت فيها فنون القول ، ودقت معاني مفرداتها القديمة ، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة ، وهلم جرا . واللغة العربية أصدق شاهد على ما نقول ، فقد كان لانتقال العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام ، ومن النطاق العربي الضيق الذي امتازت به مدنيتهم في عصر بني أمية إلى الأفق العالمي الواسع الذي تحولوا إليه في عصر بني العباس ، كان لهذين الانتقالين أجلّ أثر في نهضة لغتهم ورقي أساليبها ، واتساعها لمختلف فنون الأدب ، وشتى مسائل العلوم

وانتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة يهذب لغتها ، ويسمو بأساليبها ، ويوسع نطاقها ، ويزيل ما عسى أن يكون بها من خشونة ، ويكسبها مرونة في التعبير والدلالة . وإن موازنة بين حالة اللغة العربية في عهد بداوة العرب قبل الإسلام وحالتها في عهد حضارتهم الإسلامية ، أو بين ما كانت عليه عند أهل البادية في عصر ما وما كانت عليه في الحضر في نفس هذا العصر لأصدق برهان على ذلك . وإن البدوي الذي لم يلهمه شيطانه في مدحه للأمير أحسن من قوله :

أنت كالكلب في حفاظك للعهـ ـد وكالتيس في قراع الخطوب

قد استطاعت قريحته بعد أن هذبتها حضارة بغداد أن تجود بمثل قوله :

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وما يحدث بين حضارة الأمة ولغتها من توافق وانسجام ، يحدث مثله بين لغتها ومظاهر بيئتها الجغرافية . فجميع خصائص الإقليم الطبيعية تنطبع في لغة سكانه . ومن أجل ذلك نشأت فروق كبيرة في مختلف مظاهر اللغة بين سكان المناطق الجبلية وسكان الصحراء وسكان الأودية ؛ وبين سكان المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية . ومن ثم كذلك نشأت فروق غير يسيرة بين أفراد الفصيلة اللغوية الواحدة ، بل بين لهجات اللغة الواحدة

ففي كل لغة من لغات الفصيلة السامية مثلاً ، تتمثل حالة البيئة التي سكنها الناطقون بها . فالآرامية التي نشأت في الشمال

جافة الألفاظ ، قليلة المفردات، ثقيلة التراكيب، مضطربة القواعد، لا تكاد تواتي الأساليب الشعرية الراقية . والعربية التي نشأت في الجنوب أعذب اللغات السامية ألفاظاً ، وأغناها مفردات ، وأدقها قواعد ، وأكثرها مرونة واتساعاً لمختلف فنون القول . والعبرية التي نشأت في منطقة متوسطة بين هاتين المنطقتين تمثل في رقيها منزلة بين منزلتي الآرامية والعربية ؛ فقد فاقت الأولى ولكنها قصرت عن أن تدرك شأو الثانية ، فألفاظها وأساليبها تتسع لكثير من مناحي القول ؛ ولكن العربية تفوقها في مرونة التعبير والترف اللغوي وسعة الثروة في المفردات ، وقواعدها سهلة مضبوطة ، ولكنها لا تبلغ في دقتها وتنوعها مبلغ قواعد اللغة العربية . وتظهر هذه الفروق حتى في ناحية الأصوات ، فالآرامية حوشية الأصوات ، صعبة النطق ، تلتقي في كلماتها المقاطع المتنافرة والحروف الساكنة ؛ والعربية عذبة الأصوات سهلة النطق خفيفة الوقع على السمع ، تقل في كلماتها الحروف غير المتحركة[1] ، ولا يكاد يجتمع في مفرداتها ولا في تراكيبها مقاطع متنافرة ، ولا يلتقي في ألفاظها ساكنان . والعبرية وسط بين هذه وتلك : فهي لم تصل في سهولة اللفظ إلى درجة العربية ولا في صعوبته إلى درجة الآرامية ؛ يتخلل كلماتها حروف المد في نطاق أوسع من الآرامية ، وبدرجة تقل كثيراً من ظواهر الصعوبة في النطق ، ولكن بدون أن تصل في هذه الناحية إلى الشأو الذي وصلت إليه لغة القرآن[2]

ولهذا السبب نفسه اختلفت اللهجات الإغريقية القديمة . فعلى الرغم من أن بلاد الإغريق كانت تشغل منطقة ضيقة فإن الاختلاف اليسير الذي كان بين أجزاء هذه المنطقة في طبيعتها الجغرافية قد أحدث بين لهجات سكانها فروقاً ذات بال . فاللهجة الدورية مثلاً خشنة الألفاظ ، حوشية المخارج ، صعبة النطق ، ثقيلة الأصوات ، على حين أن اللهجة اليونانية رخوة الكلمات ، سهلة النطق ، عذبة الأصوات ، يتخلل كلماتها كثير من حروف المد وأصوات اللين

ومظاهر النشاط الاقتصادي تطبع اللغة كذلك بطابع خاص في مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها . ومن ثم اختلفت مظاهر اللغة في الأمم والمناطق تبعاً لاختلافها في نوع الإنتاج ، ونظم الاقتصاد ، وشئون الحياة المادية ، والمهنة السائدة (الزراعة ، الصناعة ، التجارة ، الصيد ، رعي الأنعام ... الخ) . وقد تؤثر هذه المظاهر في أصوات اللغة نفسها . فقد يؤدي نوع العمل الذي يزاوله سكان منطقة ما إلى تشكيل أعضاء نطقهم في صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف ونبرات الألفاظ ومناهج التطور الصوتي

واللغة مرآة ينعكس فيها كذلك ما يسير عليه الناطقون بها في شئونهم الاجتماعية العامة ، فعقائد الأمة ، وتقاليدها ، وما تخضع له من مبادىء في نواحي السياسة والتشريع والقضاء ، والأخلاق والتربية وحياة الأسرة ، وميلها إلى الحرب أو جنوحها إلى السلم ، وما تعتنقه من نظم بصدد الموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة وسائر أنواع الفنون الجميلة ... كل ذلك وما إليه يصبغ اللغة بصبغة خاصة في جميع مظاهرها في الأصوات والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب ... وهلم جرا[1]

وتتشكل اللغة كذلك بالشكل الذي يتفق مع اتجاهات الأمة العامة ومطامحها ونظرها إلى الحياة . فاتجاه الإنجليز مثلاً إلى الناحية العملية قد صبغ لغتهم بصبغة مادية في مفرداتها وتراكيبها ؛ حتى إنه ليقال فيها : « دفع زيارة أو تحية أو انتباها » و« أنفق وقته في كيت وكيت » "to pay visit, compliments, attention ... etc" "He spent his time in ...". بدلاً من « أدى زيارة » و « قدم تحية » و « أبدى انتباها » و « قضى وقته في عمل ما »

وما يكون عليه الأفراد من حشمة وأدب في شئونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض ينبعث صداه في لغتهم ألفاظها وتراكيبها ، فاللغة اللاتينية لا تستحي أن تعبر عن العورات والأمور المستهجنة والأعمال الواجب سترها بعبارات مكشوفة ، ولا أن تسميها بأسمائها الصريحة . على حين أن اللغة العربية بعد الإسلام تتلمس أحسن الحيل وأدناها إلى الحشمة والأدب في التعبير

(١) تكثر في الكلمات العربية أصوات المد الطويلة (الألف والياء والواو) والقصيرة (الفتحة والكسرة والضمة) ، حتى أنه ليقل وجود حرف غير متبوع بواحد منهما .

(٢) V. Renan : L'Origine du Langage, p.p. 188,189.

(١) من أجل البحوث في هذا الموضوع وما يتصل به ما كتبه العلامة « فانييه » في المجلد الثاني من مجلة « التربية » سنه ١٩٠٧ صفحات ٤٣٤ — ٤٦٣ تحت عنوان : « روح الأمة وطباعها ممثلة في لغتها »

V. Vannier : « L'Esprit et les Mœurs d'une nation d'après sa langue; » Revue Pédagogique 1907 - T. II. P.P. 434 — 463.

عن هذه الشئون ، فتلجأ إلى المجاز فى اللفظ وتستبدل الكناية بصريح القول : القبل ، الدبر ، قارب النساء ، لمس امرأته ، قضى حاجته ... الخ ، ولقد كان لها بهذا الصدد فى ألفاظ القرآن الكريم وعباراته أسوة حسنة : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » ؛ « واهجروهن فى المضاجع » ؛ « لمستم النساء » ؛ « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » ؛ « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » ؛ « فاعتزلوا النساء فى المحيض » ؛ « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة مؤمنة من قبل أن يتماسا » ... وما إلى ذلك من كريم العبارات ونبيل الألفاظ . وما يبدو فى اللغة العربية بهذا الصدد يبدو مثله فى اللغات الأوربية الحديثة وخاصة الشمالية منها ، وأكثرها تحرجاً فى هذه الناحية اللغة الإنجليزية ، فالبطن مثلاً لا يعبر عنه باسمه الصريح بل يطلق عليه فى الغالب Stomach (أى المعدة) وسراويل الرجل يطلق عليها Inexpressible (أى ما لا يمكن التعبير عنه) ؛ وسراويل المرأة تطلق عليها كلمة معناها الأصلى « الجمع أو التركيب » Combination ... وهلم جراً

وخصائص الأمة العقلية ومميزاتها فى الإدراك والوجدان والنزوع ، ومدى ثقافتها ومستوى تفكيرها ومنهجه ، وتفسيرها لظواهر الكون ، وفهمها لما وراء الطبيعة — كل ذلك وما إليه ينبعث كذلك صداه فى لغتها[1] . ففى الأمم الأولية الضعيفة التفكير ، المنحطة المدارك ، تقزر الكلمات الدالة على المحسات والأمور الجزئية ، وتتعدم أو تقل الألفاظ الدالة على المعانى الكلية ، وتخلو دلالة المفردات من الدقة والضبط ، فيكثر فيها الخلط واللبس والإبهام ، وتعرو القواعد أو تكاد تعرو من ظواهر التصريف والاشتقاق وربط عناصر الجملة والعبارة بعضها ببعض ، ويضيق متن اللغة فلا يتسع لأكثر من ضروريات الحياة . ومن هذا القبيل الشعوب الصينية : فلغاتها أولية ساذجة فى نواحى الألفاظ والدلالة والقواعد ، تكفى للتعبير عن ضروريات الحياة ، وشئون الصناعة اليدوية ، والأدب السهل ، والتأمل المضحل ؛ ولكنها لا تتسع لعلم ولا لفلسفة ولا لدين بالمعنى الصحيح لهذه الكلمات ، حتى إنه لا يوجد فيها اسم للاله ؛ ويعبر فيها عن مسائل ما وراء الطبيعة بعبارات ملتوية مبهمة مضطربة الدلالة فى أذهان أهلها أنفسهم

(١) V. Vannier op. cit

وفى الشعوب السامية القديمة ، إذ كان يسود التفكير الدينى ، وتفسر شئون الحياة تفسيراً سهلاً ، وتنسب جميع الظواهر الطبيعية إلى تدخل الأرواح والآلهة ، ويسيطر على المدارك الكسل والخمول ، وتنفر الأفكار من البحث العلمى ، وترغب عن التأمل الفلسفى — فى مثل هذه الشعوب ترى اللغات سهلة المأخذ ، ساذجة الدلالة ، ضحلة المعانى ، قصيرة الجمل ، قليلة الروابط : تضع أجزاء الجملة وفقرات العبارة بعضها بجانب بعض ، معتمدة فى بيان وظيفة الألفاظ والجمل وعلاقة كل منها بما عداه على ذكاء المخاطب وسياق الحديث وترتيب المفردات . . . وما إلى ذلك ؛ والروابط التى تشتمل عليها قليلة العدد ، غير متنوعة المعنى ، يرجع معظمها إلى علامات تدل على العطف وما شاكله . وفى الشعوب الهندية الأوربية حيث ينشط التفكير ، ويعمق الإدراك ، ويدق البحث ، وتتجه العقول إلى التأمل الفلسفى ، وتميل إلى تفسير ظواهر الكون والمجتمع الإنسانى تفسيراً علمياً يربطها بأسبابها وقوانينها العامة — فى مثل هذه الشعوب تكثر فى اللغات الألفاظ الدالة على المعانى الكلية ، والتراكيب المعبرة عن الحقائق العامة ، وتقزر أزمنة الأفعال[1] ، وتطول الجمل وتتعدد أجزاؤها ، وتتنوع الروابط وتختلف دلالاتها فتتسع للتعبير عن دقيق الوجدان ، وعميق الإدراك ، وحقائق الفلسفة والعلوم

على عبد الواحد وافى
ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة السوربون

(١) ليس الفعل فى معظم اللغات السامية إلا زمنان : فعل انتهى زمنه (ماض) وفعل لم ينته زمنه (أمر ومضارع للحال أو للاستقبال) ، على حين أن له فى اللغات الهندية الأوربية أزمنة كثيرة لكل منها صيغة خاصة وقد بلغت هذه الأزمنة فى اللغة الفرنسية أحد عشر زمناً فى الجمل الاخبارية وحدها .

الله . . والشيطان . . !

تأليف الأستاذ أحمد فتحى قصة طريفة مكتوبة بأسلوب رائع ولغة سهلة ولفظ جميل وهى صراع بين الهوى والعقل والفضيلة والرذيلة والهدى والضلال وتنتهى بالاهتداء إلى نور الله والبعد عن غواية الشيطان وثمنها ٣ قروش صاغ

تطلب من مكتبة الجامعة شارع محمد على بمصر